الفصل الثاني

كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي

(وقفة التقليد واللجوء إلى تكفير الفلاسفة)

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط التالية:

١ ـ تحليل فصول الكتاب .

٢ ـ أثره على نماذج من المفكرين .

٣ ـ التعبير عن الوقفة التقليدية من خلال تكفير آراء بعض الفلاسفة .

obeikandl.com

obeikandl.com

وقفة التقليد واللجوء إلى تكفير الفلاسفة

إذا أردنا أن نتحدث عن أثر الغزالى فى مجال الفكر الفلسفى العربى، سواء مثَّل هذا الفكر علم الكلام، أو فلاسفة العرب، أو صوفية الإسلام، فإن هذا الأثر لا يبدو لنا فى أكمل صورة وأدقها وأعمقها إلا من خلال كتابه (تهافت الفلاسفة).

صحيح أننا نجد كتبا عديدة للغزالى. وكلها أثرت بصورة أو بأخرى على المفكرين الذين عاشوا بعده. ولكن هذه الكتب كان أثرها يكاد يكون مقتصرا على جانب واحد دون الجوانب الأخرى التى تدخل فى إطار الفلسفة العربية بمعناها الشامل الواسع، ونعنى بتلك الجوانب علم الكلام وفلاسفة العرب وصوفية الإسلام سواء عبروا عن التصوف السنى أو التصوف الفلسفى.

نوضح ذلك بالقول بأننا نلاحظ أن كتاب الغزالى (تهافت الفلاسفة) لم يكن أثره مقتصرا ومركزا على جانب واحد أو جانبين من هذه الجوانب والمجالات الثلاثة، بل إنه أثر ـ كما سنرى ـ على كل هذه الجوانب أو الدوائر مجتمعة.

فإذا كان الغزالى فى هذا الكتاب يعبر عن اتجاه أشعرى استفاد الكثير من أبعاده من الجوينى أستاذه فإنه من المنتظر إذن أن يصادف الكتاب قبولا عند المفكرين ذوى الاتجاه الأشعرى والذين عاشوا بعد الغزالى.

وإذا كان الغزالى بحكم اتجاهه الأشعرى قد نقد ـ بل كفَّر ـ الفلاسفة فى مجموعة من الآراء التى ذهبوا إليها، فقد كان من المنتظر أن يقوم بالرد عليه فيلسوف كابن رشد. وهذا يعد صورة من صور التأثر. إذ أن التأثر لا يقتصر عادة على الموافقة على آراء السابقين، بل يشمل أيضا الوقوف موقف المخالفة من الآراء السابقة. ومن هنا كان المعبرون عن الاتجاه الأشعرى بعد الغزالى متأثرين

ـ كما سنرى ـ باتجاه الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) وكان أيضا المتمسكون بالاتجاه الفلسفى يكشف نقدهم للغزالى عن نوع ما من أنواع التأثر، بمعنى أن آراء الغزالى كانت مؤثرة عليهم بحيث قاموا بالرد عليه.

وما يقال عن تأثر الدوائر الكلامية وخاصة الأشاعرة، والدوائر الفلسفية فى صورة ابن رشد بكتاب (تهافت الفلاسفة)، يمكن أن يقال وينطبق أيضا على تأثر المعبرين عن الاتجاه الصوفى وخاصة الجانب السنى منه، إذ لا يخفى علينا وجود التقاء بين بعض آراء الأشاعرة من جهة وآراء الصوفية من جهة أخرى وذلك على الرغم من أن المنهج غير المنهج، منهج علماء الكلام ومنهج الصوفية.

وهذا كله يؤدى بنا ـ كما سنرى ـ إلى القول بأن كتاب (تهافت الفلاسفة) لم يكن أثره مقتصرا على الممثلين لاتجاه دون اتجاهات أخرى، بل كان أثره شاملا لمفكرين يعبرون عن الاتجاه الأشعرى وشاملا أيضا لمفكرين من أصحاب الاتجاه الفلسفى، كما يشمل مفكرين عبروا من خلال أقوالهم عن آراء تدخل فى مجال التصوف.

وفى دراستنا هذه سوف لا ندخل فى تفصيلات الخلاف بين الغزالى من جهة والفلاسفة الذين سبقوه من جهة أخرى، فإن ذلك لا يدخل فى مجال دراستنا، بل سيكون قصدنا الرئيسى التركيز على بيان أثر كتاب معين من كتب الغزالى وهو كتاب (تهافت الفلاسفة) على مجموعة من الآراء والاتجاهات، سواء كانت تلك الآراء والاتجاهات معبرة عن نوع من التأييد لفكر الغزالى أو كانت تدلنا أولا وقبل كل شىء على أنها نوع من الرد وعدم القبول لآراء الغزالى واتجاهه.

يمكن القول إذن بأن الغزالى يحتل فى تاريخ الفكر الإنسانى عامة، والفكر الإسلامى خاصة مكانة كبيرة، فهو قد ترك لنا الكثير من الكتب التى تبحث فى موضوعات تتعلق بالفقه وعلم الكلام والفلسفة والتصوف.

وإذا كان الغزالى ـ كما سبق أن أشرنا ـ قد ترك لنا كتبا عديدة من بينها كتابه (مقاصد الفلاسفة) وكتابه (معيار العلم) وكتابه (إحياء علوم الدين) إلى آخر هذه الكتب، إلا أن أهم الكتب التى تحمل طابعا فلسفيا هو كتابه (تهافت الفلاسفة).

صحيح أن للغزالى كتبا أخرى اشتهرت شهرة كبيرة ككتابه (إحياء علوم الدين) ولكن هذا الكتاب: كتاب (إحياء علوم الدين) يتعلق أساسا بمجالات فقهية وخلقية صوفية، أما كتاب (تهافت الفلاسفة) فيعد أبرز الكتب فى المجال الذى يتعلق بالفلسفة، بل إنه كما سيتبين لنا من أكثر الكتب تأثيرا فى المفكرين والفلاسفة الذين جاءوا بعد الغزالى سواء فى المشرق أو المغرب، ومن أبرز الكتب التى تركت صدى عند من أتى بعد الغزالى سواء تمثل هذا الصدى فى متابعة تيار الغزالى فى هذا الكتاب والإعجاب به، أو فى الرد على الغزالى وأفكاره الموجودة فى هذا الكتاب.

إننا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن الغزالى لا يذكر إلا ويذكر معه كتاب (تهافت الفلاسفة) بحيث أصبح هذا الكتاب من الآثار التى لا يمكن إغفالها أو التجاوز عنها حين نتحدث عن فكر الغزالى، إذ أن الدارس لفكر الغزالى فى أى مجال من مجالات هذا الفكر المتنوع المتعدد يجد أنه لا يمكنه التجاوز عن الكتاب بأى حال من الأحوال، بمعنى أنه الكتاب الرئيسى للغزالى فإذا كان قد اشتهر بهجومه على الفلاسفة، فإن أهم كتبه التى يهاجم فيها الفلسفة والفلاسفة هو هذا الكتاب. وإذا كان الغزالى يكفر الفلاسفة فى موضوعات دون موضوعات أخرى، فإن هذا الكتاب يبين لنا المسائل التى يختلف فيها الفلاسفة مع الاتجاه الدينى؛ إذ أن الغزالى كان يعتقد أنه كمناضل عن الإسلام ومدافع عنه، فلابد أن يرد على آراء الفلاسفة التى يعتقد أنها تتعارض مع الإسلام. ومن هنا فإن أهمية هذا الكتاب تكمن فى أنه يمثل خلفية تاريخية غاية فى الأهمية، إذ أن المطلع على هذا الكتاب يجد بيانا بالمجالات التى يختلف فيها الفلاسفة مع رجال الدين.

يضاف إلى ذلك أننا نلاحظ أن المفكرين الذين جاءوا قبل الغزالى وتأثروا بالفلسفة اليونانية، قد أخذوا من الفلسفة اليونانية ما يؤيدون به مذاهبهم ويحاربون به وجهة نظر خصومهم، ومن هنا لا نجد هؤلاء المفكرين قد اهتموا بشن حملة شاملة على الفلسفة. أما الغزالى فى كتابه هذا (كتاب التهافت) فقد اهتم بنقد المذاهب الفلسفية بوجه عام شامل.

ولننتقل الآن ـ قبل الكشف عن أهمية هذا الكتاب ومدى تأثيره فى المفكرين الذين عاشوا بعد الغزالى فى الشرق أو فى الغرب ـ إلى الإشارة إشارة موجزة إلى هذا الكتاب وأبرز موضوعاته، وذلك حتى يتسنى لنا الكشف عن مكانته من جهة، وتبرير اهتمام المفكرين بعد الغزالى بهذا الكتاب من جهة أخرى.

ألف الغزالى هذا الكتاب عام ٤٨٨هـ حسب أرجح الأقوال وذلك قبل خروجه من بغداد، إذ أن الغزالى قد تنقل خلال حياته بين كثير من البلدان شرقا وغربا. وكانت سن الغزالى أثناء تأليفه هذا الكتاب، (كتاب التهافت) ثمانية وثلاثين عاما، إذ أن الغزالى قد ولد عام ٤٥٠هـ.

ونود أن نشير إلى أن الغزالى قد ألف هذا الكتاب بعد تأليفه لكتاب (مقاصد الفلاسفة)، ومعنى هذا أن الغزالى قد اهتم أولا بدراسة مذاهب الفلاسفة دراسة شاملة وعرضها عرضا موضوعيا فى كتابه (مقاصد الفلاسفة) دون أن يهتم بنقدها. ولاشك أن ذلك يعد جانبا محمودا، إذ أن المفكر إذا قام بالهجوم على رأى أو أكثر من رأى من الآراء، فلا بد أن يسبق الهجوم دراسة الآراء التى سيقوم بنقدها دراسة دقيقة موضوعية، وهذا ما نجده عند الغزالى. إذ أنه عرض لآراء الفلاسفة عرضا موضوعيا فى كتابه (مقاصد الفلاسفة) ثم قام بعد ذلك بنقدها وبيان ما فيها من حق أو باطل، وذلك فى كتابه (تهافت الفلاسفة)، والدليل على أن الغزالى ألف كتاب (التهافت) بعد كتابه (مقاصد الفلاسفة) أنه فى كتاب (التهافت) يشير إلى كتابه (مقاصد الفلاسفة).

أما عن الموضوعات التى يبحثها الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) فعددها

عشرون موضوعا أو مسألة. وهو لا يكفر الفلاسفة فى هذه المسائل كلها، إذ أن الغزالى لا ينكر فضل الفلسفة فى تثقيف الناس وخاصة فى الجوانب الرياضية والفلكية من الفلسفة، إنها أمور لا سبيل إلى جحدها فيما يرى الغزالى. وكذلك لا ينكر الغزالى الجوانب الطبيعية إلا فى المسائل التى تخالف الدين. ومعنى هذا أن الغزالى إذا كان قد بحث عشرين مسألة فى كتابه (تهافت الفلاسفة) فإنه لا يكفر الفلاسفة إلا فى ثلاث مسائل سنشير إليها بعد ذكر المسائل التى يبحثها الغزالى فى كتابه.

فالغزالى فى كتابه (التهافت) يبحث عشرين مسألة على النحو التالى:

المسألة الأولى: إبطال مذهبهم فى أزلية العالم.

المسألة الثانية: إبطال مذهبهم فى أبدية العالم.

المسألة الثالثة: بيان تلبيسهم فى قولهم: إن الله صانع العالم وإن العالم صنعه.

المسألة الرابعة: فى تعجيزهم عن إثبات الصانع.

المسألة الخامسة: فى تعجيزهم عن إقامة الدليل على استحالة إلهين.

المسألة السادسة: فى إبطال مذاهبهم فى نفى الصفات.

المسألة السابعة: فى إبطال قولهم: إن ذات الأول لا ينقسم بالجنس والفصل.

المسألة الثامنة: فى إبطال قولهم: إن الأول بسيط بلا ماهية.

المسألة التاسعة: فى تعجيزهم عن بيان أن الأول ليس بجسم.

المسألة العاشرة: فى بيان أن القول بالدهر ونفى الصانع لازم لهم.

المسألة الحادية عشرة: فى تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره.

المسألة الثانية عشرة : فى تعجيزهم عن القول بأنه يعلم ذاته.

المسألة الثالثة عشرة : فى إبطال قولهم: إن الأول لا يعلم الجزئيات.

المسألة الرابعة عشرة : فى قولهم إن السماء حيوان متحرك بالإرادة.

المسألة الخامسة عشرة : فى إبطال ما ذكروه فى الغرض المحرك للسماء.

المسألة السادسة عشرة : فى إبطال قولهم إن نفوس السموات تعلم جميع الجزئيات.

المسألة السابعة عشرة : فى إبطال قولهم باستحالة خرق العادات.

المسألة الثامنة عشرة : فى قولهم: إن نفس الإنسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا عرض.

المسألة التاسعة عشرة : فى قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية.

المسألة العشرون : فى إبطال إنكارهم لبعث الأجساد مع التلذذ والتألم فى الجنة والنار باللذات والآلام الجسمانية.

معنى هذا أن الغزالى لا يخالف الفلاسفة إلا فى بعض الموضوعات الإلهية والطبيعية، أما المسائل الرياضية فلا يخالفهم فيها، دليل هذا أن الغزالى يقول فى كتابه (تهافت الفلاسفة) بعد ذكره لأسماء الموضوعات التى يبحثها فى كتابه: «هذا ما أردنا أن نذكر تناقضهم فيه من جملة علومهم الإلهية والطبيعية، وأما الرياضيات فلا معنى لإنكارها ولا للمخالفة فيها، فإنها ترجع إلى الحساب والهندسة».

ومن هنا نجد أن الغزالى يفصل بين العلوم الإلهية من جهة والعلوم الحسابية الرياضية والمنطقية من جهة أخرى، بمعنى أن العلوم الحسابية الرياضية والمنطقية إذا كانت صادقة فإن هذا لا يعنى أن العلوم الإلهية التى يبحث فيها الفلاسفة تعد صادقة. هذا ما يقوله الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) : «إن هؤلاء الفلاسفة يستدلون على صدق علومهم بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ويستدرجون بها ضعفاء العقول، ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسابية».

هذا ما يقوله الغزالى، وسنرى حين نكشف عن أثر هذا الكتاب كيف أثرت هذه الفكرة على عدد كبير من المفكرين كابن تيمية وابن قيم الجوزية.

الغزالى إذن لا ينكر على الفلاسفة آراءهم الفلسفية التى عرضها فى كتابه (تهافت الفلاسفة) بل يركز هجومه على الجوانب الدينية الإلهية.

وهو يركز فى كتابه (تهافت الفلاسفة) على الهجوم على مذهب أرسطو بصفة خاصة، فهو فى نظر الغزالى يعد عدوا للإسلام، وقد رأى أن من واجبه محاربته باسم المسلمين على اختلاف مذاهبهم. كما يهاجم بصفة عامة فلاسفة يونانيين سبقوا أرسطو، ولعل ذلك يتضح فى قول الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) عن فلاسفة الإسلام الذين تابعوا أرسطو، إنه يقول: (وإنما مصدر كفرهم - أى فلاسفة الإسلام - سماعهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم. وهم مع رزانة وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة).

ومن هنا فإن التيار الذى يسير فيه الغزالى، والاتجاه الذى نجده فى هذا الكتاب، يكشف لنا عن أن الغزالى لم يكن فيلسوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة بل كان لا يعدو كونه متكلما يمثل الاتجاه الأشعرى على وجه الخصوص...

يضاف إلى ذلك أن الغزالى يعد ممثلا للاتجاه الصوفى، ومن يعبر عن الاتجاه الصوفى- بعد دراسته للفلسفة- يصبح عادة عدوا لدودا للفلسفة، إذ أن الاتجاه الصوفى يرتكز على القلب والوجدان، أما الاتجاه الفلسفى فإنه يقوم على العقل. ومن هنا نجد خلافا بين الغزالى المتكلم الأشعرى الصوفى وبين الاتجاه الفلسفى. وسيتضح لنا ذلك حين متابعة أثر هذا الكتاب وموقف ابن رشد الفيلسوف الأندلسى من هذا الكتاب.

وإذا كنا قد ذكرنا فيما سبق الموضوعات التى يبحثها الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) فإننا نشير الآن إشارة موجزة إلى أبرز الموضوعات التى يخالف فيها الغزالى الفلاسفة ويكفرهم فى بعضها، مع ملاحظة أن الغزالى حين ينسب آراء لفلاسفة الإسلام فإن هذا لا يعنى أن فلاسفة العرب قد قالوا بهذه الآراء على النحو الذى يفهمه الغزالى.

فالغزالى حين بحثه فى مشكلة حدوث العالم وقدمه، أى تلك المشكلة التى تتناول بالبحث: هل خلق الله العالم من مادة أولى بحيث يعد قديما؟ أم أن الله تعالى خلقه من العدم بحيث يعد حادثا؟ ينكر على الفلاسفة قولهم بقدم العالم.

ونود أن نشير إلى أن الغزالى يعبر فى ذلك عن آراء المتكلمين وخاصة الأشاعرة، والذين ذهبوا إلى القول بقدم العالم، يضاف إلى ذلك أن الغزالى قد استقى بعض آرائه وردوده على الفلاسفة حول هذا الموضوع من كلام يحيى النحوى. ولعل مما يؤكد ذلك ما يذكره البيهقى فى كتابه (تاريخ حكماء الإسلا)، فهو يرى أن أكثر ما ذكره الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) يعد تقريرا لكلام يحيى النحوى، وذلك حين رد يحيى النحوى على برقلس الذى كان يقول بقدم العالم.

ويلاحظ أن الغزالى يربط بين مشكلة الحدوث أو القدم وموضوع الأدلة على وجود الله تعالى، فهو يذهب فى كتابه (تهافت الفلاسفة) إلى تقسيم الباحثين فى المشكلتين أو الموضوعين معا إلى ثلاث فرق: فرقة أولى يسميها فرقة أهل الحق، وهى التى ذهبت إلى القول بحدوث العالم، ولما كان العالم محدثا فله محدث- أى الله تعالى- وفرقة ثانية هى الدهرية، وهى التى ذهبت إلى القول بقدم العالم،وبالتالى فلا تعترف بوجود إله. وفرقة ثالثة هى فرقة الفلاسفة، وقد ذهبت إلى القول بقدم العالم، ومع ذلك حاول الفلاسفة تقديم الأدلة على وجود الله كالفارابى وابن سينا.

ويرى الغزالى أن الفرقة الأولى على صواب فى الرأى، من حق القائل بحدوث العالم أن يقول بوجود محدث لهذا العالم. والفرقة الثانية لم تكن على صواب فى الرأى وإن خلا رأيها من التناقض، بمعنى أن القائل بقدم العالم يؤدى قوله إلى إنكار وجود علة خالقة لهذا العالم. أما الفرقة الثالثة

فيذهب الغزالى إلى وصف آرائها بالتناقض، بمعنى: كيف يكون العالم قديما وفى نفس الوقت ندلل على وجود الله تعالى.

وكما ينكر الغزالى على الفلاسفة قولهم بقدم العالم، ينكر عليهم أيضا قولهم بعلم الله تعالى للكليات دون الجزئيات. إنه ينسب إليهم هذا القول ويكفرهم فيه، وذلك على الرغم من أن الفلاسفة لم يعبروا صراحة عن هذا الرأى بل قالوا إن علم الله تعالى بالكليات يتضمن علمه تعالى بالجزئيات. وقد يكون الغزالى قد خلط بين رأى أرسطو فى هذا الموضوع وآراء فلاسفة العرب.

وإذا كان الغزالى ينكر على الفلاسفة ذلك، فإنه ينقدهم ويهاجمهم فى قولهم: إن الخلود والثواب والعقاب يوم القيامة يعد نفسانيا روحيا وليس جسمانيا. وهو يقصد بذلك أساسا ما يذهب إليه ابن سينا حين قال إن النفس إما سعيدة وإما شقية وهذا هو المعاد.

أما فيما يتعلق بمشكلة العلاقة بين الأسباب والمسببات فقد ذهب الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) متأثرا فى ذلك بآراء الأشاعرة إلى أن العلاقة بين الأسباب والمسببات تعد علاقة غير ضرورية، أى أن الطبيعة لا عمل لها أصلا، بل كل عملها يرجع إلى الله تعالى مباشرة. ومعنى هذا أن الغزالى ينكر العلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات، فليس من الضرورى أن تؤدى النار إلى احتراق الأجسام، وليس من الضرورى أن يؤدى الغذاء إلى الشبع، وهكذا نجد الغزالى يخالف الفلاسفة الذين ذهبوا إلى القول بالعلاقات الضرورية بين العلة والمعلول، أى بين الأسباب ومسبباتها.

ويمكن القول بأن السبب الذى دفع الغزالى إلى نقده للفلاسفة محاولته الدفاع عن المعجزات؛ لأنه يربط بين القول بالعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات من جهة، وإنكار المعجزات من جهة أخرى. ويدلل على ذلك بما يذهب إليه فى كتابه (تهافت الفلاسفة) من أن مخالفة الفلاسفة تعد أمرا

ضروريا؛ إذ يقوم عليها إثبات المعجزات الخارقة للعادة، بحيث إن من يسلم بالتلازم الضرورى بين الأسباب والمسببات فإن هذا التسليم من جانبه ينفى بالتالى قلب العصا ثعبانا، وإحياء الموتى، وشق القمر.

يقول الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة): الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا ليس ضروريا عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر، فليس من الضرورى وجود أحدهما لوجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الرى والشرب والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف. فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق، لا لكونه ضروريا فى نفسه غير قابل للفوت، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جزء الرقبة وإدامة الحياة مع جزء الرقبة، وهلم جرا إلى جميع المقترنات.

وعلى الرغم من عدم اتفاقنا مع رأى الغزالى جملة وتفصيلا، إلا أننا إنصافا له نقول إنه ذهب فى كتابه الذى نحن بصدد الحديث عنه إلى أن الله تعالى خلق لنا علما بأن هذه الممكنات لم يفعلها. ولم ندع أن هذه الأمور واجبة، بل هى ممكنة، ويجوز أن تقع ويجوز ألا تقع. واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى يرسخ فى أذهاننا جريانها وفق العادة الماضية ترسيخا لا تنفك عنه.

اتضح لنا حتى الآن الاتجاه الذى نجده فى كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى، وهو الاتجاه الكلامى الأشعرى، كما تكشفت لنا الفكرة الرئيسية وراء تأليف هذا الكتاب وهى نقد بعض آراء الفلاسفة والهجوم عليها.

ونريد الآن إبراز مدى تأثير هذا الكتاب على المفكرين الذين أتوا بعد الغزالى وعاشوا فى بلاد العالم شرقا وغربا، وذلك حتى يتبين لنا أن الغزالى

إذا كان قد تأثر فى كتابه هذا (كتاب التهافت) بكثير من الآراء التى استقاها من مفكرين عاشوا قبله أو عاصروه، فإنه قد أثر بكتابه هذا فى مفكرين عاشوا بعده، سواء تمثل هذا التأثير فى موافقة هؤلاء المفكرين لآراء الغزالى أو خلافهم معها. وهذا ما يوضح لنا شهرة فكر الغزالى وأهمية كتاب (التهافت) الذى ترك بصمات واضحة وبارزة على الفكر الإنسانى بصفة عامة وعلى الفكر العربى الإسلامى بصفة خاصة. إن كتاب (التهافت) لو كان مجرد عرض وتعبير عن آراء وجدت قبل آراء الغزالى لما كان لهذا الكتاب أهمية، ولكن هذا الكتاب قد أثار ردود فعل قوية وبارزة. ومن هنا احتل هذا الكتاب مكانة بارزة فى مجال الفكر الإسلامى والعالمى، وإن كانت هذه المكانة تعد سلبية فى بعض جوانبها.

وإذا أردنا الكشف عن أثر هذا الكتاب وجدنا قائمة كبيرة بأسماء مفكرين اهتموا بهذا الكتاب وما فيه من آراء.

ففى المغرب العربى نجد كثيرا من المفكرين والفلاسفة عرفوا هذا الكتاب واتفقوا مع آراء مؤلفه تارة واختلفوا معها تارة أخرى. ومن هؤلاء المفكرين والفلاسفة ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن سبعين.

فابن باجه حين يعبر فى آرائه عن الاتجاه الفلسفى، وحين يبحث فى نظرية المعرفة وفى نظرية الاتصال يقف موقفا يعد ردا من جانبه على الموقف الذى نجده فى كتاب (تهافت الفلاسفة)، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن تعاطف ابن باجه مع التيار العقلى الفلسفى يعد من جانبه رد فعل على التيار الذى وجدناه عند الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) وهو الاتجاه الكلامى الذى تمثل فى نقد بعض آراء الفلاسفة.

وابن طفيل الذى عاش فى المغرب العربى بعد ابن باجه، عرف كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى معرفة تامة وذكره صراحة فى قصته الفلسفية (حى ابن يقظان) فابن طفيل يذكر فى مقدمة قصته الفلسفية، أن من جملة ما كفر فيه الغزالى الفلاسفة فى كتابه (تهافت الفلاسفة) إنكارهم لحشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة. كما أشار ابن طفيل إلى تعارض آراء

الغزالى من كتاب لآخر. يضاف إلى ذلك أن طريقة طرح ابن طفيل لمشكلة حدوث العالم وقدمه تبين لنا أنه كان متأثرا بالغزالى فى عرضه لحجج حدوث العالم وحجج قدم العالم، وإن كان ابن طفيل يميل إلى القول بقدم العالم، وذلك على الخلاف من رأى الغزالى، وخاصة أن ابن طفيل يقدم لنا دليلا من أدلته على وجود الله تعالى، هو دليل الحركة، ويربط بين هذا الدليل والتحريك من مادة أولى أزلية.

وإذا كنا لا نجد أحدا من المشرق العربى قد جاء بعد الغزالى مباشرة وقام بالرد على كتابه هذا، وإذا كان ابن طفيل فى المغرب العربى قد أشار إلى هذا الكتاب بصورة عامة وسريعة، فإن أبرز فيلسوف فى المغرب العربى نجد لديه اهتماما كبيرا بكتاب (تهافت الفلاسفة) والرد عليه هو الفيلسوف الأندلسى أبو الوليد بن رشد الذى يعد آخر فلاسفة العرب.

لقد سبق أن ذكرنا أن كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى قد أثار ردود فعل قوية من جانب بعض المفكرين، وهذا ما يثبت لنا أهمية هذا الكتاب بحيث يعد- كما سبق أن أشرنا- أهم كتب الغزالى على وجه الإطلاق. ولعل أبرز ردود الفعل هذه ما نجده عند ابن رشد. إذ أن ابن رشد قد ألف كتابا كبيرا خصصه للرد على كتاب (تهافت الفلاسفة)، ويسمى هذا الكتاب (تهافت التهافت). ونريد الآن أن نقف وقفة أطول عند ابن رشد حتى نستطيع مواصلة الكشف عن أثر كتاب الغزالى على العديد من المفكرين.

إن ابن رشد فى كتابه يذكر كل المسائل التى ذكرها الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) ويقوم بالرد عليها. لقد حاول ابن رشد أن يثبت أن المسائل التى كفَّر الغزالى فيها الفلاسفة ليست كما فهمها الغزالى. ومعنى هذا أن الغزالى - فيما يرى ابن رشد - قد نسب إلى فلاسفة العرب آراء لم يقولوا بها على النحو الذى فهمه الغزالى.

يضاف إلى ذلك أن الغزالى حين يذكر آراء لأرسطو، فإنه يرجع إلى

الفارابى وابن سينا، وهذا يعد خطأ فيما يرى ابن رشد؛ إذ من الواجب الرجوع إلى مذهب أرسطو مباشرة، بدلا من الاعتماد على ما يذكره فلاسفة العرب عنه؛ إذ قد يخطىء هؤلاء الفلاسفة فى فهمهم لمذهب أرسطو.

ومن هنا نجد ابن رشد حين رده على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى يأخذ ذلك على الغزالى ويقول: (إن تعرض أبى حامد الغزالى إلى مثل هذه الأشياء على هذا النحو من التعرض لا يليق بمثله. فإنه لا يخلو من أحد أمرين: إما أنه فهم هذه الأشياء على حقائقها فساقها فى كتاب (تهافت الفلاسفة) على غير حقائقها وذلك من فعل **الأشرار**، وإما أنه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض إلى القول فيما لم يحط به علما، وذلك من فعل **الجهال**. والرجل يجل عندنا عن هذين الوصفين، ولكن لابد للجواد من كبوة. فكبوة الغزالى هى وضعه هذا الكتاب، ولعله لجأ إلى ذلك من أجل زمانه ومكانه).

ولعل هذه الأقوال وغيرها من جانب ابن رشد تعد من جانبه تعبيرا عن الدفاع عن التيار الفلسفى ودفاعا أيضا عن الفلاسفة. فهو يرى أن الفلاسفة إذا كانوا قد أخطأوا فى شىء فليس من الواجب أن ننكر فضلهم فى البحث، بل يجب أن نشكرهم لأنهم حاولوا البحث عن الحقيقة، ومن يحاول البحث عن الحقيقة قد يصيب تارة ويخطىء تارة أخرى.

بل إننا لو تأملنا فى الموضوعات والمشكلات التى بحث فيها ابن رشد وجدنا أن من دوافع بحثه لهذه المشكلات: أن الغزالى قد ألف كتاب (تهافت الفلاسفة) وهذا مما يكشف عن تأثير كتاب الغزالى على ابن رشد. . فابن رشد حين يحاول التوفيق بين الدين والفلسفة فى كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) فإن هذه المحاولة جاءت من جانبه كرد فعل على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى. وحين يبحث ابن رشد فى نظرية المعرفة ويتخذ موقفا عقليا فإن فى هذا ردا على الغزالى. وحين يقسم ابن رشد مراتب المعرفة إلى معرفة خطابية إقناعية، ومعرفة جدلية كلامية، ومعرفة برهانية فلسفية، ويعلى من شأن المعرفة البرهانية الفلسفية على المعرفة الخطابية والمعرفة الجدلية فإن هذا كان ردا على الغزالى الذى نجد لديه تيارا كلاميا صوفيا بارزا.

إن الغزالى إذا كان يقسم مراتب المعرفة أو مراتب الإيمان إلى ثلاث مراتب هى: الإيمان عن طريق التقليد، والإيمان عن طريق الأدلة الكلامية الجدلية، والإيمان عن طريق القلب والذوق، ويرى أن هذه المرتبة الأخيرة تعد أعلى المراتب، فإن ابن رشد يرى أن الإيمان عن طريق العقل والبرهان يعد أعلى المراتب وأسماها.

وإذا كان الغزالى قد ذهب ـ كما رأينا ـ إلى القول بعدم وجود ضرورة فى العلاقات بين الأسباب والمسببات، فإن ابن رشد فى رده على الغزالى يذهب فى (تهافت التهافت) إلى أن من رفع الأسباب فقد رفع العقل، وصناعة المنطق تضع وضعا أن هاهنا أسبابا ومسببات، وأن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها. ودفع هذه الأسباب مبطل للعلم ورافع له، إذ يلزم أن لا يكون هاهنا شىء معلوم أصلا علما حقيقيا، بل إن كان ثمة علم فهو علم مظنون. كما لا يكون هاهنا برهان ولا حد، وترتفع أصناف المحمولات الذاتية التى تأتلف منها البراهين، ومن يذهب إلى عدم وجود أى علم ضرورى يلزمه أن لا يكون قوله هذا ضروريا.

بل إن ابن رشد يبين لنا أن الغزالى إذا كان يرى أن خرق العادات يعد جائزا وأن الأشياء يمكن أن تتغير خصائصها دون نظام، فإن هذا الرأى يتصف بالسفسطة بل الشعوذة.

كما أن ابن رشد يذهب فى معرض رده على الغزالى إلى أنه من الضرورى القول بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها؛ لأن ذلك يؤدى إلى التسليم بالحكمة والغائية بالنسبة للموجودات. فالحكمة هى معرفة الأسباب التى تقوم على منطق العقل بحيث لو ارتفعت الضرورة عن كميات الأشياء المصنوعة وكيفياتها وموادها لارتفعت الحكمة الموجودة فى الصانع وفى المخلوقات، وكان يمكن أن يكون كل فاعل صانعا وكل مؤثر فى الموجودات خالقا، وهذا عند ابن رشد إبطال للخلق والحكمة.

هذا كله إن دلنا على شيء فإنما يدل على الأثر العميق والصدى الكبير الذى أحدثه كتاب (تهافت الفلاسفة) على ابن رشد وعلى غيره من مفكرين وفلاسفة.

وإذا انتقلنا من ابن رشد إلى ابن سبعين الذى يعد من متصوفة الإسلام ومن المعبرين عن التصوف الفلسفى، وجدنا ابن سبعين يشير فى رسائله الصوفية بطريقة غير مباشرة إلى هذا الكتاب؛ وذلك حتى يكشف عن التيارات المختلفة الموجودة فى فكر الغزالى، فابن سبعين فى رسائله يقول إن الغزالى لسان دون بيان، وصوت دون كلام، وتخليط يجمع الأضداد، وحيرة تقطع الأكباد. مرة صوفى، وأخرى فيلسوف، وثالثة أشعرى، ورابعة فقيه، وخامسة محير. وإدراكه فى العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت، وفى التصوف كذلك؛ لأنه دخل الطريق بالاضطرار الذى دعاه لذلك من عدم الإدراك، وينبغى أن يعذر ويشكر لكونه من علماء الإسلام على اعتقاد الجمهور، ولكنه عظم التصوف ومال بالجملة إليه ومات عليه بحسب ما أعطاه كلامه وفهم من أغراضه.

قلنا إن كتاب الغزالى قد أثار اهتمام كثير من المفكرين وأحدث صدى كبيرا ودويا واسع النطاق، ولعل هذا يتضح إذا اطلعنا على كتاب (تهافت الفلاسفة) لخوجه زاده. إذ أن هذا الكتاب الأخير يعد نوعا من المحاكمة أو المقارنة بين كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى وكتاب (تهافت التهافت) لابن رشد، وكان قد أمر بهذه المحاكمة أو المناظرة السلطان محمد الفاتح، ودخل فى المسابقة أو المنافسة مصطفى بن يوسف المعروف بخوجه زاده، والذى تقدم بكتاب يكشف عن المقارنة والتحكيم بين كتاب الغزالى وكتاب ابن رشد. وقد انتصر خوجه زاده بكتابه هذا على من تقدم لمنافسته وهو علاء الدين الطوسى الذى دخل المسابقة بكتاب عنوانه (الذخيرة فى المحاكمة بين الغزالى وابن رشد).

هذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أهمية كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى وتأثيره على كثير من المفكرين. ولعل هذا يتضح لنا من كثرة طبعات هذا الكتاب فى عصور مختلفة، ومن ترجمته إلى كثير من اللغات.

إذ قد ترجم إلى اللاتينية عن العبرية وعن العربية، وترجم إلى الفرنسية وغيرها من اللغات، كما كتب عنه كثير من المستشرقين الكثير من الدراسات ومنهم على سبيل المثال فنسنك Wensinck وأسين بلاثيوس Asin Palacios والأب موريس بويج Maurice Bouyges وكارادى فوCarra de Vaux وهورتن Horten ومكدونالد Macdonald وجورج حورانى Hourani وجولدزيهر Gollziher وماسينيونMassignon إلى غير هؤلاء من مفكرين وكتاب فى العصر الحديث. وهذا يدلنا على أن تأثير هذا الكتاب لم يقتصر على بلاد المشرق العربى والمغرب العربى فى العصر الوسيط، بل إن تأثيره تجاوز الشرق إلى الغرب وتجاوز العصر الذى ألف فيه الكتاب إلى العصور التى تلت هذا العصر، كما امتد من فلاسفة إسلاميين إلى مفكرين مسيحيين، فالقديس توما الإكوينى على سبيل المثال نجد عنده وصفا لرؤية الله تعالى فى الآخرة قد يقترب فى بعض زواياه بصورة أو بأخرى من أقوال الغزالى، وذلك رغم الخلاف الدينى بين الغزالى من جهة وتوما الإكوينى من جهة أخرى. بل نجد الكثير من الدراسات التى تبحث فى أوجه المقارنة ـ رغم أنها تعد فيما نرى خاطئة ـ بين آراء الغزالى واتجاهاته من جهة، وبين آراء واتجاهات مفكرين وفلاسفة فى العصر الحديث. من ذلك على سبيل المثال المقارنة بين رأى الغزالى الذى عبر عنه فى كتاب (تهافت الفلاسفة) حين ذهب إلى إنكار العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات ورأى الفيلسوف الإنجليزى ديف هيوم D.Hume والمقارنة بين شك الغزالى وشك ديكارت Descartes الفيلسوف الفرنسى، والمقارنة بين الاتجاه النقدى الموجود عند الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) والاتجاه النقدى عند الفيلسوف الألمانى Kant إلى آخر تلك المحاولات التى إن دلت على شىء فإنما تدلنا على ثراء الآراء الموجودة على صفحات كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى. إنها محاولات خاطئة وفاشلة قلباً وقالباً وإن كان أكثرهم لايعلمون

إن الحديث عن أهمية هذاالكتاب ـ كتاب (تهافت الفلاسفة) عبر الزمان ـ قد يحتاج إلى عدد من الصفحات يتجاوز صفحات الكتاب نفسه، إذ أن أثره لم يقتصر على مفكرين فحسب بل أثر فى اتجاهات رئيسية. فالمقارن بين الاتجاه

الموجود فى هذا الكتاب لا يستطيع أن يتغافل عن تأثير هذا الكتاب فى تدعيم انتيار الأشعرى الذى وجد عند كثير من المفكرين الذين عبروا عن الاتجاه الأشعرى الذى تجده بين ثنايا صفحات كتاب (تهافت الفلاسفة) ومن هؤلاء المفكرين على سبيل المثال لا الحصر فخر الدين الرازى فى كثير من كتبه وشروحه، ككتابه (أساس التقديس فى علم الكلام) وشرحه على كتاب (الإشارات والتنبيهات) لابن سينا.

وما يقال عن الاتجاه الكلامى الأشعرى يمكن أن يقال أيضا بصورة غير مباشرة عن الاتجاه الصوفى السنى، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار كثيرا من أوجه الالتقاء بين الاتجاه الأشعرى والاتجاه الصوفى السنى، وهذا الاتجاه نجده بين ثنايا صفحات (تهافت الفلاسفة) للغزالى، ونعنى بذلك ما سبق أن أشرنا إليه وهو أن الغزالى عندما أصبح صوفيا فقد اتجه إلى نقد آراء الفلاسفة والهجوم عليهم.

وإذا كان الاتجاه الأشعرى والاتجاه الصوفى عند الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) قد غذى هذه الاتجاهات التى وجدت بعده ودعمها، فإن اتجاه الغزالى فى كتابه هذا إلى نقد الفلاسفة ودحض آرائهم والهجوم على الاتجاه الفلسفى بصفة عامة، قد غذى ودعم كثيرا من الاتجاهات التى يقصد منها أصحابها الهجوم على الفلسفة بصورة أو بأخرى. وكثير من الحجج التى استند إليها أصحابها فى هذا الهجوم قد استفادوا الكثير منها من حجج الغزالى التى ذكرها فى كتابه (تهافت الفلاسفة) ومن هؤلاء ابن تيمية على سبيل المثال.

وإذا انتقلنا من ذلك إلى بيان أثر هذا الكتاب ولو بطريقة غير مباشرة على مفكرين إسلاميين فى العصر الحديث، وجدنا من هؤلاء جمال الدين الافغانى ومحمد عبده.

فجمال الدين الأفغانى والذى تعبر آراؤه عن سذاجة وسطحية فى كتابه (الرد على الدهريين) قد هاجم الكثير من المذاهب المخالفة للدين، والمقارن بين كتاب الأفغانى هذا وكتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى لا يعدم وجود أوجه شبه بين

حملة جمال الدين الأفغانى على المذاهب المخالفة للأديان وكشفه عن تناقض هذه المذاهب المخالفة وبين نقد الغزالى وهجومه فى كتابه (تهافت الفلاسفة) على آراء الدهريين والفلاسفة الذين يقولون بآراء لاتعبر عن اتجاه دينى.

وما يقال عن جمال الدين الأفغانى يقال عن محمد عبده. فكم من آراء كلامية نجدها فى مؤلفات محمد عبده ومنها (رسالة التوحيد) وهذه الآراء الكلامية قد استفاد بعضها من الغزالى وخاصة كتابه (تهافت الفلاسفة).

يضاف إلى ذلك دفاع محمد عبده عن الدين ضد حملات الهجوم عليه. إن هذا يذكرنا بما قام به الغزالى فى كتاب (تهافت الفلاسفة) بل إن اتجاه الغزالى إلى تكفير الفلاسفة ونقدهم فى قولهم بقدم العالم كان دافعا لمحمد عبده إلى أن يعرض لنا رأيه حول حقيقة هذا الخلاف ويتخذ موقفا يعبر عن تلمس الأعذار للفلاسفة رغم قول محمد عبده بخطئهم حين قالوا بقدم العالم. والشيخ محمد عبده يرى أنه لا مبرر للمناداة بتكفير القائلين بالقدم والقول بأنهم أنكروا شيئا ضروريا فى الدين، بل كل ما ينبغى قوله ـ فيما يرى محمد عبده ـ هو أن الفلاسفة قد أخطأوا فى نظرهم، والإنسان معرض للخطأ حين يسلك طريق الاجتهاد ولا يعتمد على التقليد فى الاعتقاد. كل هذه الجوانب نجدها عند محمد عبده. وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أن تأثير كتاب الغزالى قد تجاوز عصره، حتى وصل إلى مفكرين إسلاميين فى عصرنا الحالى.

من هذا كله نستطيع القول فى ختام كشفنا عن أثر هذا الكتاب عبر الزمان والمكان بأن كتاب (تهافت الفلاسفة) قد أثر تأثيرا بالغا فى كثير من الفلاسفة سواء هؤلاء الذين عاشوا فى المشرق العربى أو فى المغرب العربى، وسواء كان العصر الذى عاشوا فيه هو العصر الوسيط أو كان العصر الحديث أو عصرنا الحالى، أى أيامنا المعاصرة. وسواء بحثوا فى الفلسفة العربية أو فى فلسفة العصور الوسطى. إن هذه الشهرة قد غلبت على شهرة كتبه الأخرى.

والواقع أن الغزالى قد أحدث أثرا كبيرا عن طريق هذا الكتاب الذى رد فيه

على الفلاسفة، وذلك على الرغم ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ من أن أكثر الآراء التى قال بها الغزالى فى ثنايا كتابه تعد آراء غير صحيحة فيما نرى، ولا تستند إلى عقل أو برهان، بل إن ما يترتب عليها من نتائج سيئة وضارة قد تعد أكثر عددا من النتائج الإيجابية والفلسفية.

هذا كله يدلنا على أن هذا الكتاب قد جاء معبراً عن الوقفة التقليدية: وقفة اللجوء إلى التكفير، إنه لا يتضمن أية فكرة مستقبلية، ولم لا؟ وقد كانت أفكار الغزالى مؤدية إلى حد كبير جداً إلى توقف الفلسفة فى المشرق العربى، مؤدية إلى عدم وجود فلاسفة فى بلداننا العربية منذ وفاة ابن رشد، أى منذ ثمانية قرون، نعم لقد جاء هذا الكتاب معبراً كما قلنا عن وقفة تقليدية غير تنويرية بأى حال من الأحوال.

❑ ❑ ❑

مراجع مختارة

ابن باجه: تدبير المتوحد ـ طبعة بيروت.

ابن تيمية: درء تناقض العقل والنقل ـ طبعة القاهرة.

ابن سبعين: رسائل ـ طبعة القاهرة.

ابن سينا: الشفاء ـ طبعة القاهرة.

ابن سينا: النجاة فى الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية ـ طبعة القاهرة.

ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ طبعة القاهرة.

ابن رشد: تهافت التهافت ـ طبعة بيروت.

ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو ـ طبعة بيروت.

ابن طفيل: حى بن يقظان ـ طبعة القاهرة.

الأشعرى: مقالات الإسلاميين ـ طبعة القاهرة.

الإيجى: المواقف ـ طبعة القاهرة.

الجوينى: الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ـ طبعة القاهرة.

الخضيرى «د. زينب»: أثر ابن رشد فى فلسفة العصور الوسطى ـ طبعة القاهرة.

الرازى «فخر الدين»: المباحث المشرقية ـ طبعة حيدر آباد، الدكن.

الشهرستانى: الملل والنحل ـ طبعة القاهرة.

العراقى «عاطف»: النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد.

obeikandl.com

العراقى (عاطف): مذاهب فلاسفة المشرق.

العراقى (عاطف): تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية.

العراقى (عاطف): العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر.

العراقى (عاطف): المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد.

الغزالى: تهافت الفلاسفة ـ طبعة بيروت.

الفارابى: كتاب الحروف ـ طبعة بيروت.

صبحى (د. أحمد محمود): فى علم الكلام ـ طبعة الإسكندرية.

قنواتى (الأب جورج): مؤلفات ابن رشد ـ طبعة القاهرة.

محمود (د. زكى نجيب): المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى.

مكاوى (د. عبد الغفار): مدرسة الحكمة ـ طبعة القاهرة.

- Aristotle: Metaphysics.

- Aristotle: The logic.

- Fakhry M. : Islamic occasionalism and its critique by Averroes and Acquinas.

- Gauthier: Averroes.

- Gilson: History of Christian philosophy.

- Renan: Averroes et l'averroisme.

- Ross: Aristotle.

- Radhakrishnan: History of philosophy Eastern and western.

- Taylor "H.O": The Mediaeval Mind.

❑ ❑ ❑

obeikandl.com